معالم المدن العراقية في رسائل نازك الملائكة

تنشر المدى الحلقتين الرابعة والخامسة من رسائل الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة التي تعد وثائق ادبية مهمة عن معالم المدن العراقية ، وتؤرخ لعلاقات ثقافية تشكل ذروة النشاط الفكري والابداعي ، لاسيما وهي مكتوبة من قبل رائدة الشعر الحر في العراق ، التي قرأناها شاعرة ، واليوم نقرأهُا ناثرة من خلال رسائلها التي هي قيمة اضافية لابداعها الشعري.

اعدتها للنشر: احسان الملائكة

الحلقة الرابعة

جبل الحاج عمران في ٣ آب ١٩٤٧ الى شقيقتها لبنى الملائكة

عزيزتي لبنى

اكتب اليك من قمة جبل الحاج عمران الرائع الواقع على حدود ايران، وهو اعلى مكان في العراق كله واجمل مكان في العالم كله. العراق يا عزيزتي لبنى جنة العالم السماوية. إننا نحيا في فردوس ارضي.. في بلد الجبال والشعر والموسيقى دون ان نعلم!!

غداً سنتسلق الجبل المجاور لنلقي نظرة على ايران، لكننا سنمشي على الاقدام وسنعود الى مصيف صلاح الدين لنصله في السادسة مساء، اذ يستغرق الطريق تسع ساعات، وهو طريق سهل لحسن الحظ ليس فيه مخاطر ولا مجازفات قولي للعمة العزيزة فاطمة: اننا قد "زرنا" اولياء كثيرين من ذوي الكرامات، وقرأنا الفاتحة على ارواحهم، وعلّقنا على قبورهم الصخور، على عادة الناس هنا المناخ بارد الى حد غريب في هذا المكان، وانا اكتب اليك في الفندق، مرتدية الملابس الشتوية ومعطفاً، وفي قدمي جوارب، ورأسي مربوط بالايشارب، ورقبتي بالمنديل الا ترون انني اتحفظ من البرد كما تشاء الوالدة العزيزة التي اشكرها مائة مرة لأنها اصرت ان آخذ معي الملابس الشتوية، ولا اكتمكم انني اغنى الكل بالملابس السميكة!!

اعتذر اليك عن قصر الرسالة لأنني اريد ان استمتع بمنظر الجبال الهائلة من نافذة غرفتي، وارقب طلوع القمر، ثم انني متعبة بعد السفر الطويل من السادسة والثلث صباحاً الى السابعة مساءً، سأتعشى وأنام لأحلم بكم، وارجو الا تخاف والدتي عليّ فنحن هنا في سلام والملائكة تحرسنا.

تحيات حارة الى ابي العزيز والى اخواتي واخوي وكل الاقارب لا سيما ميسون وعمتي عائشة وتحيات خصوصية الى والدتي المحبوبة التي اذكرها كل يوم، ومثلها الى العمة العزيزة فاطمة والى كل الاهل والاصدقاء احييكم احييكم الف مرة.

اختك الوفية نازك

مصيف صلاح الدين في ٤ آب ١٩٤٧ الى شقيقتها احسان الملائكة

عزيزتي احسان

ابدأ الرسالة بأن اهنئكم بسلامتي!! فلقد تعرضنا خلال السفر في هذه المناطق الجبلية الوعرة الى اخطار كثيرة لم اقابل مثلها طيلة حياتي.

لقد جاءونا بأمهر سائق تعرفه الجبال واسمه (ميناس) يعمل في سياقة السيارة في هذه الجبال المخيفة منذ عشرين عاماً.

في الرابعة من صباح الاحد استيقظت الخيام الثماني التي تمتد تحت سماء صلاح الدين وفي السادسة والثلث تحركت سياراتان نحو كلي علي بكه، ورفعنا ايدينا في لهفة وحرارة قائلين للمصيف: (وداعاً) وبعد لحظات عادت الزميلات الى مرحهن المعتاد من ضحك.. غناء.. صراخ وتصفيق!! اما انا فانصرفت الى التحديق في الجبال والاحجار الملونة وعيون الماء والاشجار الباسقة وكل ما حولنا من سحر وفتنة.

في الساعة السابعة بلغنا البلدة الخضراء.. شقلاوة بهوائها الرطب البارد، وجبالها الملونة الساحرة، ووقفنا دقائق فتزودنا بالماء، وغادرنا شقلاوة نحو الكلي.. كم جبلاً عبرنا؟ هذا ما لا اعرفه، مئات الجبال والوديان قد انبسطت على طريقنا، وعشرات منها قد ارتقيناها وهبطناها وبلغنا قرية "حرير" حقول ممتدة تتحدر بينها عيون المياه بين الصخور والبيوت فيها متدرجة، وكل بيت على طبقة، وانطلقنا من "حرير" بسرعة ورحنا ننتقل من جبل الى جبل اعلى منه، وفجأة لاح لنا جبل مخيف ذو شكل غريب، شاهق شاهق، ورحنا نسير نحوه ولا نصل، عبرنا عشرات الجبال، وذلك الجبل العجوز في مكانه، وحين اقتربنا منه رأينا على سفوحه الوعرة طريق سيارة ضيقاً، ودارت سيارتنا حول الجبل العجوز، وتخطته دون ان تصعده، وقيل لنا اخيراً اننا سنهبط كلي علي بيك خلال نصف ساعة، فراحت الزميلات يغنين: "هلي هلي: ودّونا للكلي" ثم لاحت لنا صخرتان ضخمتان من بعيد، والسيارة تمضي مسرعة في الوادي المنبسط وبرزت لوحة على جانب الطريق مكتوب عليها: (خطر.. سر باعتناء في هذا المضيق، ونبه بالبون في كل منعرج) وهكذا بلغنا الكلي دعيني يا عزيزتي احسان اصف لك بقلمي العاجز "كلي علي بيك"، وحاولي ان تضيفي من خيالك كي تتضح لكِ الصورة ان المضيق في لغة الجبالِ يعني واديا ضيقا جدا لا يتعدى عرضه شارع ابي قلام يقوم بين سلسلة جبال عالية جدا وسفوحها عمودية على الوادي بحيث لا تصلح للتسلق عليها.

ويقوم كلي علي بك في عمق الوادي المنبسط وطوله بالسيارة نصف ساعة وحين ينظر اليه المرء من اعلى الجبال يجده بشكل حرف M بين صخور الوادي العميق، والحرف M ليس جبلا وانما هو شق عميق الى درجة تجمد لها العروق في عمق الوادي، وصخور الوادي سوداء حالكة غريبة الشكل، وهذا الشق جيولوجي هائل يشكل حرف M في تعرجه وانت ترين اذ ذاك كلي علي بيك من الاعلى اما الان فتعالي معي لندخله: منبه السيارة يدوي بصوت عال ولكنك لا تسمعين خرير ماء يصم اذنيك وحين تنظرين الى الاعلى لا ترين الا صخوراً سوداء تشكل جبلا عجيبا كأنه جدار صخري يخيل اليك انه سيسقط على رأسك وهذا الجدار يبدو بلا نهاية ولو حاولت رؤية نهايته لاحسست بدوار في رأسك ثم انظري الى الاسفل، لتري موضعك من الكرة الارضية انك في سيارة... لا شك في هذا لكن السيارة معرضة للتدهور، فهي تقطع طريقاً صخرياً منحوتاً في الجدار الاسود، والطريق يرتفع الى الأعلى دائماً وتنظرين الى اليسار فترين وادياً صخريا مرعبا تنحدر في قعره مياه زرقاء تجري بسرعة هائلة محدثة خريرا ساحرا الا انه عال عال.. ولو زلت يد السائق لحظة عن محرك السيارة، فأي مصير رهيب ينتظر المرء هنا.. انه ولا شك سيتمزق فوق الصخور وفي لحظة تجرفه المياه وتمحو ذكراه الى الابد، حتى الطيور لن تجد من لحمه شيئاً تقتات به!! وتلك كانت خاتمة (علي بيك) الذي سُمِّيَ هذا الوادي الرهيب باسمه.

ذكروا لنا ان (علي بيك) هذا رجل جبار كان شيخ الطائفة الايزيدية، وكان يعتدي على الاكراد، والتركمان باستمرار ثم يعتصم بالكلي كالشياطين وفي ذات يوم تجمع اعداؤه واقتحموا الكلي وذبحوه هو واصحابه، وتدهورت جثثهم في المياه الجارفة، ومزقتها الشلالات والاحجار.

ما زال الناس يمرون بالكلي ويحفرون اسماءهم على الصخور والاشجار دون ان يذرفوا دمعة واحدة على ذلك الوحش ونظرنا تحتنا فجأة فصرخنا صرخة واحدة ردت الوديان صداها حتى ظن ركاب السيارة التالية ان سيارتنا انقلبت في الوادي وجمدت دماؤهم خوفا فلقد فوجئنا بشلال هائل ينحدر من اعلى صخرة الى عمق الوادي، كان طول الشلال عشرين متراً وعرضه ثلاثة امتار وتتناثر حوله طبقة من الضباب الابيض في نقاء الثلج.

نزلنا عند الشلال، والتقطت بآلة التصوير ست صور لمختلف جهات الوادي، والتقطت لنفسي صورة واحدة (جبرا للخاطر) وتحت الحاح الجماعة، حمدا لله على اني متواضعة تجاه امي الطبيعة، وقد كنت دائما اوثر على نفسي، واثناء التقاط الصور تعرضت لضباب الشلال البارد على صورة الهبت الشعر في عروقي، ولو كنت انا تشايكوفسكي لكتبت لحنا اروع من (بحيرة البجع) الجميلة، وتركنا المكان ورحنا نقطع الكلي يقرأن آية الكرسي خوفاً من الآن التردي في الوادي، اما انا فقد كنت اكثر شعورا وافتنانا بالمناظر من ان افكر بالموت!! نصف ساعة ونحن في كلي علي بيك، اجمل مكان في الوجود، بين الجبال الشامخة الملونة العمودية على حافة الوادي المخيف، تحت ضباب مياه الشلال، في ظلال اشجار العنب والجوز والكاليبتوز، والصفصاف النابتة في اعلى الجبال، دون ان تمسها يد انسان نصف ساعة وانا شاعرة في الجنة، لم اعد نازك، لست من البشر ليس لي كيان، لست الا فكرة خيالية في ذهن الملائكة!! يجب ان اختم الرسالة الآن مع اني ما زلت في اول الكلام! فانتظروا مني رسالة اخرى لاحدثكم فيها عن بقية الرحلة في "جنديان" "وراوندوز والحاج عمران"، أحييكم باخلاص .

-نازك-

الحلقة الخامسة

الكوت في ٣ - ٤ - ١٩٤٨
إلى شقيقتها سها الملائكة

عزيزتي سها

هذه رسالة سريعة أبعث بها إليك من المدينة الشاعرية: الكوت، المدينة التي افتتنت بها حتى اقترحت أن نمدد بها إقامتنا ليلتين، كم كنت أتمنى ان احضرك معي وأحضر لبنى، لكنني الآن لن استسلم للندم، وانما سأمضي قدماً في وصف مشاعري على عادتي في رسائلي.

تركنا بغداد في العاشرة والنصف صباحاً واتجهنا نحو الكوت بطريق سلمان باك، وفي الثانية عشرة والنصف بلغنا "العزيزية" وهي ناحية جميلة فقيرة إلا انها منظمة، والشارع الرئيسي فيها رومانتيكي على تواضعه، فهو فسيح تمتد في وسطه وعلى جوانبه أشجار الكالبتوز الحلوة. ونزلنا بالمدرسة الابتدائية وكانت خالية فتناولنا الغداء واسترحنا إلى الواحدة والنصف، ثم واصلنا السفر إلى الكوت. وفي تمام الرابعة والنصف لاحت لنا مدينة الكوت بجسرها الشاعري الضخم، ورحنا نعجب بجمالها، فشوارعها عريضة مشجرة، والبنايات في أولها حديثة فخمة تتوسطها ساحة كبيرة حديثة درنا حولها واتجهنا إلى شاطئ دجلة الساحر الذي دهمنا بدوي مائه وخريره الساحر ونزلنا بمتوسطة البنات حيث استقبلتنا المديرة والمعلمات والتلميذات جميعاً، بالاضافة إلى عدد كبير من الأهالي!!

وبعد استراحة قصيرة خرجنا إلى ما يسمى هنا "المشروع" وهو سد ضخم يقطع دجلة عرضاً، ويحتوي على ستة وخمسين باباً تعلق فتحجز ماء النهر وبذلك يروي مئات المزارع مما جعل منطقة الكوت أغنى مناطق العراق بالشعير، ويهمني أن أحدثك عن الجمال الساحر الذي يهيئه "المشروع"، فالمياه تتجمع عنده بقوة لا حد لها، فتحدث دوياً هائلاً يفتح للنفس ابواباً من السحر والفتنة والخيال، وقد وقفت عند هذا المنظر مسحورةً لا أدري أين أنظر والام أصغي، ولا اكتمك انني شعرت باحترام عميق للإنسان الذي استطاع أن يخضع الطبيعة إلى هذا الحد المعجز الجميل، إلا ان فتاةً من المدينة أنبأتني بأن هذا المشروع قد كلف مئات من العمال المساكين حياتهم، فقد كان النهر كلّه مكهرباً، ولذلك كانت الشركة تدفع للعمال أجوراً هي غاية في الارتفاع مما كان يغري العمال بالإقدام على المجازفة. وتلك هي الطريقة التي يصنع بها الانسان مدينته، فوراء كل شيء عظيم، تضحيات ومآسٍ خير لنا أن تتناساها إن أردنا ان نستمتع بالحياة قليلاً.

وخلال تفرجنا على المشروع خرجت المدينة كلها في استقبالنا، وسكان الكوت غاية في الأدب والذوق والهدوء.

نحن الآن في المدرسة، وأنا وحدي في الإدارة أكتب، وقد ذهبت زميلاتي المدرسات إلى البريد للاتصال بمدرستنا ببغداد من أجل تمديد إقامتنا هنا، ففي نيتنا السفر إلى "الحي" وإلى "واسط" صباح الغد بعد زيارة "الدجيل" و"الغرّاف" ومزارعهما. يضايقني هنا غناء تلميذاتنا وصراخهن، فأنا اكره هذه الأجواء العامية، ومع ذلك فأنا مستمتعة لأنني في الكوت الجميلة هذه المدينة المشرقة الضاحكة.

شيء آخر يضايقني.. آه يا سها، لقد أصبحت مشهورةً وانتهى الأمر، وقد سمعت عشرات الرجال والنساء يتهامسون: (هذه هي عاشقة الليل!)، وقصدتني كثيرات ليقلن لي (قرأنا عاشقة الليل عدة مرات)، وأسوأ ما في هذا اصرار الناس على التحديق فيّ، فأنا كما تعلمين أخجل أشد الخجل، وقد جهدت أن أخفي نفسي، خاصةً وإن كثيرات قلن لي: بلهجة مضحكة "سويلنا فد شعر على المشروع!!".

تحياتي إليكم جميعاً، سأبرق صباح الغد إليكم. سعاد سعيدة جداً هنا، وقد طارت فرحاً لفكرة البقاء هنا، وكل ما أرجو أن ترتاح أمي لفكرة تمديد الإقامة، لكني لا أظنها ترتاح ما دامت احسان قد فارقتكم إلى الموصل مع طلاب وطالبات كليتها. تحياتي كثيرة كثيرة.

المخلصة نازك